(٤)

الخلق ما بين يدي رحمته
حقيقة وخليقة
وخليقة وحقيقة

حديث الجمعة
٢٠ شوال ١٣٨٠ هـ - ٧ أبريل ١٩٦٠ م
تصحيح التاريخ الهجري: ١١ شوال ١٣٧٩ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم نستعين، وبه نعوذ من الشيطان الرجيم، خليقة وحقيقة!

تطلب الخليقة الحقيقة، كما تطلب الحقيقة الخليقة.

الخليقة في الله والحقيقة في الله.

هذا ما عناه وجه مولاه وقيام معناه محمد عبد الله يوم قال لأمته (إن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم)[١].

أنتم ملأ الخليقة وهم ملأ الحقيقة.

وإنهم معكم باطن لظاهر من أمركم، وأنتم معهم ظاهر لباطن من أمرهم.

إنهم يبحثون بينكم عمن يطلبهم، وأنتم تبحثون عندهم عمن يرحمكم.

إن الذين عندهم ممن يطلبكم منهم إنما يقوم بينكم عبادا للرحمن يمشون على الأرض هونا. وإن الذين يطلبونهم من بينكم هم بدورهم عباد للرحمن في معاني الأخوة لهم. وهذا أيضا ما عناه وجه رب الناس ملك الناس إله الناس.. يمشي بين الناس عبدا لله، يوم قال للناس (إن الله يبحث عن عبده كما يبحث العبد عن ربه)[٢]، فما كان الطالب إلا عبدا لله عرفه، فطلب عبدا لله يطلب مولاه فيطلبه، ويعرف مولاه فيعرفه.

خليقة وحقيقة !

إن الأمر تشابه علينا. أين هي الحقيقة وأين هي الخليقة؟ متى هي الخليقة ومتى هي الحقيقة؟ وأين هو عالم الخليقة وأين هو عالم الحقيقة؟ هل الخليقة في معنانا، والحقيقة فيمن سبقنا وتولانا؟ أم الحقيقة في معنانا، والخليقة فيما يظهر من مبنانا مما نصنع بأمانة مولانا؟ نظران كلاهما له وجه من الصواب، وأصوب منهما أن نرى الحقيقة في ثياب الخليقة في قيام الخليقة بمعنى الحقيقة، لا فيما قبل ولا فيما بعد، ولكن فيما هو قائم. وهذا ما عناه روح القيام، ورسول الدوام بما نُسب إليه يوم قال معلما -: (كان الله ولا شيء معه ثم خلق الخلق وهو الآن على ما عليه كان)[٣].

إن الخليقة في الإنسان مكانا وعالما لها، ومن الإنسان موجدا ومصدرا لها، وبالإنسان قياما وحياة لها، وإلى الإنسان مستقبلا وتعاليا لها. فالإنسان للإنسان هو الحقيقة للخليقة وهو الخليقة للحقيقة.

إن الإنسان بوصفه خليقة يتخلق بأخلاق الله فيحيا، فتنتفي عنه صفة الخلق بانتفاء صفة البدء والعدم، ويلبس لباس السرمدية والبقاء، ويتصف بهذا السربال بمعاني الأزل والأبد، فيتحول من موصوف الخليقة إلى معاني الحقيقة.

والإنسان الذي كمل له هذا المعنى فأصبح الحقيقة ومعناها ومغناها، يُحب أن يُعرف لمن سبق له أن تواجد معهم ولهم عُرف. {يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين}[٤]، {بل عباد مكرمون}[٥]، وبذلك أحبت الحقيقة أن تعرف. ويصح أن نقول استأذنت من الأعلى فأذن لها، وطلبت فأجيب لها، وهذا هو الأصل في الرسالة إن صح القول بأن الحقيقة تستأذن. فالحقيقة إذنها في إرادتها، وفعلها في قيام مرادها على ما أرادت بإرادتها. (لو أردناك لكان كل ما فيك يردنا)[٦]، {ولو شاء الله لهدى الناس جميعا}[٧]، {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}[٨]، {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}[٩]، يرى ما عمل فيسعد برؤيته لعمله، أو يحيط به سوء عمله، فيرى عملُه من عمِلَه، فيشقى بسلطان عمله يسلط عليه على ما كان منه مع من عمله. {والله خلقكم وما تعملون}[١٠].

تطلب الحقيقة أن تعرف، فتمتد يدها إلى مجال الخلق وعالم الخليقة حيث كانت، فتمسك بمن شاءت لا صاحبة ولا ولد. تختار لنفسها من تريد، تداني من تحب، تصنع على عينها من الخلق من شاءت، تبدل معالمه، وتغير قوائمه، وتقوم سبيله، وتحدد له طريقه إليها. فيرضى عنها كما رضيته، ويطلبها على ما طلبته، فتدانيه حتى تكون منه قاب قوسين بل أدنى، فيعرف العبد ربه على ما عرف الرب في العبد عبده، فيوحّد العبد ربه فناء فيه، وتوكلا عليه وركونا إليه حتى يستكمل فناءه فلا يرى له أنانية، ولكن يرى ربه صاحب الأنانية في أناه، في قيامه وفي معناه، في روحه وفي مبناه، في محيطه وعلى من تولاه، فيظهر ربه باسم عبده، ويظهر وجهه باسم خلقه.. فيبقى به يطلب الناس ليعرفوه وما يطلب

الناس في طلبه، ولكن يطلب رب الناس، خالق الناس، ملك الناس، إله الناس، جديد قيام لقديم قيام في مظاهر خلقه، يستردهم إلى حظيرته.. يتوفاهم ليقبضهم بيده، يميتهم ليحييهم، يفنيهم ليبقيهم. يعمل بهم قُدرتَه، ويشاء بهم مشيئته، ويريد بهم إرادته، ويصنع بهم يده، ويقارب بهم قدمه، ويسري بهم انتشاره وتعاليه، ويعرج بهم تكنزه وترقيه.

إن الإنسان محل لقانون الله نافذا عليه بقدرته. وإن الإنسان إذا ترنم مع قانون الله فانتظمت معه حركاته وسكناته كان قانون الله على الوجود، وإذا قامت له بالله علاقة تعالى بها عن خلقيته وعن قانونيته أصبح في الله شريعة الله. أصبح باطن شرع الله. أصبح عرش الله استوى عليه الرحمن فاستوى على العرش.

لقد عرش النحل، وعرش الناس أنفسهم بيوتا معه في أمم لله، ما شرعوا لأنفسهم انتظاما في قانونه وفي قيام وجوده، العقل أصل دينهم، والنفس أصل وجودهم، والذات عالم قيامهم، والقبلة موضع قلوبهم من أبدانهم، وموضع ذواتهم من أرواح نفوسهم.

الناس تحت القانون، والناس عين القانون، والناس مصدر القانون ناس الله.. ملأ الله.. ملأ الله الأدنى، ما دنوا بالحق قائما في معانيهم، وملأ الله الأعلى ما كبروا الله، ونزهوه عن مبانيهم، إلى موعود ومرجو معانيهم لعبوديتهم.

إن الملأ الأعلى هو الإنسان، وإن الملأ الأدنى هو الإنسان. وإن ما بينهما من ملأ من عوالم الروح ليس غير الإنسان.. فالإنسان في خلقيته ما بين جسم وقلب، ونور وروح. والإنسان في حقيته ما بين كون وبيت ومعنى، والإنسان في غيبياته ما بين ذات لله وذات أقدس ما هو إلا الإنسان، فما ذات الله المقدس إلا ذات الإنسان، وما ذاته الأقدس إلا ذات الإنسان. وما ذات الخلق تطلب الخالق إلا ذات الإنسان. فالإنسان في معارجه إلى الحقيقة خارجا من عوالمه من الخليقة.. الله معه وأقرب إليه من حبل الوريد، أينما كان، وحيثما كان، وكيفما كان.

لقد قص القرآن قصة الإنسان في قصصه عن الأديان، وعن عباد الرحمن، وأولياء الشيطان. ينبعث الأشقى لم يخرج عن معنى الإنسان.. ويخاطب الأتقى الناس رسولا للرحمن لم يخرج عن معنى الإنسان. ويعرِّف الناس عن أنفسهم من ربهم الله فيهم، والله عليهم، والله أقرب إليهم من حبل الوريد، والله قائم على كل نفس بما كسبت، والله من ورائهم محيط. يعرف الإنسان أنه من الله بدأ في أحسن تقويم، ونزل أسفل سافلين، وعاد إلى ربه ربا للعالمين، لم يخرج منه وهو أسفل سافلين، ولم يقرب منه في أعلى عليين بأحسن تقويم.. ولكنه في بعده كان منه قريبا، وفي قربه كان منه بعيدا.

وفي صورته على بعد، وفي مرجعه على قرب لم يجده وربه شيئين يفترقان، ولا أمرين يختلفان، ولكن وجده عين أناه، وظاهر وباطن معناه، وسر ووجه مولاه. عشقه فكانه وأحبه فكان كيانه لا فرق بينهما.. انتهت معاني العبودية والربوبية لهما، وتنزهت معاني الألوهية عندهما عن غيرهما، وليس هو في مبتداه أو في منتهاه إلا الإنسان.

بذلك عرف الإنسان أنه بمعاني الخليقة لبستها معاني الحقيقة كان إنسانا، وأنه بمعاني الحقيقة أظهرتها ثياب الخليقة كان إنسانا.. هو {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}[11].. {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}[12] {قل جاء الحق...}[13].

هكذا الإنسان في معارجه من الأرض، وفي معارجه إلى الأرض. إن الذي يتدانى إلى الخلق إنما هو إنسان الخلق من الحق. وإن الذي يتعالى من الخلق طلبا للحق إنما هو إنسان الحق في الخلق. إنها دورة الحياة.. إنها دورة آدم.. إنها دورة الإنسان.. إنها دورة الكلمة.. إنها صبغة الكلمات.. إنها آيات الله تترى.. إنها وجوه الله.. إنها عباد الرحمن.. لا تقلهم أرض ولا تظلهم سماء.. إنهم النبأ العظيم والابن الكريم.. إنهم الأجداد والآباء والأبناء.. إنهم البيوت الذاكرة.. إنهم البيوت المذكورة.. إنهم الذكر القديم.. إنهم الذكر المحدث... إنهم البيوت المرفوعة.. إنهم البيوت الموضوعة.. إنهم بيوت الحجيج.. إنهم قبلة الصلاة.. إنهم للناس معنى الله.. إنهم من الله وجوه الله.. إنهم عباد الله عرفوا الله فكانوا عبادا لله فأصبحوا ذكرا لله وأسماء لله. (إن لله عبادا إذا ذكروا ذكر الله)[14].

هذا ما جاء به الإسلام قديما وما جاء به الإسلام أمة وسطا، وما يجيء به الإسلام دينا حيا متجددا، وإنسانا قائما متعددا. أعطي الكوثر متكاثرا، وبكثرته متناثرا، وبالحقيقة متدثرا، وبالخليقة ظاهرا، فكان من مظاهره للوجود الشمس لتكون عليه دليلا، والأرض لتكون منه سبيلا، والقمر ليكون منه نورا. فكان للناس بين الناس العبد والنبأ، والحوض والخبر، كما كان الطريق والأثر، والحقيقة والرجاء، والأمل والمثال، والجهاد والعمل، والغيبة والخيال، والنظر والحال.

إن الذي يغيب عن وعي الناس إنما هو الإنسان في معناه من الحقيقة. وإن الذي يظهر لوعي الناس إنما هو الإنسان وجها لله وعلما عليه، كلمات لله تترى ولا تنقطع، ولا تندثر، ولا تقبر، ولكنها ما تكنزت في طبقات الأرض إلا لتتعالى في أطباق السماء. كلمات طيبة أصلها ثابت في الأرض، يغوص بتكنزه جذورا في أعماقها ويتصاعد خلقا لله طبقا فوق طبق في أجوائها.

هذا هو الإنسان في هذه الأرض وعليها، وفي سمائها الدنيا منها من عالم قيامكم. سماء مزينة بالمصابيح من أهلها رسلا من أنفسهم، مصابيح نوره، ضرب بهم مثلا في قيامهم بمشكاة صدورهم مشكاته، وقلوبهم سراجه، وذواتهم رقيقة لطيفة إناؤه وزجاجته.

ها هي السماء الدنيا تتزين بمصابيح من أهلها، علماء عن الله يتفجر العلم من بين جوانبهم، وتتدفق الحكمة على ألسنتهم، ويقوم الإبداع في صناعة أيديهم، وتظهر القدرة من إحكام عقولهم. يجوبون السموات بما صنعت أيديهم، ويخترقون آفاق الحقائق بما يتكشف لعقولهم ولوعيهم من قوانين الحياة وقوانين الوجود. يحملون بعلومهم النبأ من الوجود إلى أبنائه من إنسانية الوجود.

إن منهم من كفروا يوما برسل وتخلفوا عن مُثل. ولكنهم ما كفروا بفطرة الله، وما كفروا بصبغة الله، وما كفروا بطبيعة الله، وما كفروا بوجود الله.. ولكنهم يتأملون لعلهم إلى الحقيقة يصلون، والحقيقة في أنفسهم يعمهون.. إنهم عليها في أنفسهم ينكرون، وقد قصرت الحقيقة لهم الطريق بالرسل والكتب، والعلماء عنه الخبراء به. ولكنهم سلكوا الدرب الطويل والطريق الشاق، وتنكبوا الطريق القصير. وهذا ما لا يعاب عليهم اليوم لاختفاء معالم الرسالة من أهل النبأ والعلماء، فاختاروا المشقة لأنفسهم بطريق التجربة والعلم التجريبي، وهي وإن كانت طريق بطيئة وطويلة ومديدة إلا أن الله وعدها، وها هو مبرزها بما يكشف من آياته عن طريق هذا العلم التجريبي في النفس البشرية وفي الآفاق حتى يدرك الحق للناس في أنفسهم على ما أراد الحق أن يُدرِّكهم بنفسه في أنفسهم برسل من أنفسهم.. {أو لم ير الذين كفروا.. }[١٥].. الذين تأملوا، وإن تخلفوا عن متابعة رسول الإسلام والسلام، {أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما}[١٦]؟ إنهم وهم خلق الله على ما رأوا إنما تواجدوا.. وقد كانوا رتقا ففتق. وإنهم إن عرفوا وأدركوا وتحابوا لكانوا من خلق فتق على ما يشهدون إلى حق رتق على ما يرجون وينتظرون.

إن الناس من الله، وإن الناس إلى الله، وإن الناس قياما في الله، وإن الله بالناس قائم. هذا ما جاء به الإسلام في قديمه فطرة للناس، وفي طريقه إنباء للناس حملها الأنبياء وختمهم محمد لأنه كان جماعهم وآدمهم وكلمة الله إليهم، كما بدأهم محمد مبعوثين بالحق علماءً في الناس للناس. هو في معناه حقيقتهم، ووجه الحق لهم، والشهيد على الشهداء منهم. وهذا ما عناه يوم بلغ الناس فوصل بلاغه إلى قلوب مَن وصله، (خلَّفت الله عليكم)[١٧]، (تُعرض على أعمالكم فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت لكم)[١٨]. يا محمد قل لهم {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون}[١٩]، {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا}[٢٠].. إنك لن تفارق الناس ولن تختفي من بين الناس.. حي في قبرك.. وحي في قلوبهم في بعثك متكاثر فيهم بنورك وهديك. الساعة أنت من

ذكراها، وهكذا ها هي كما تعلم إلى ربك منتهاها. وها أنت في الناس ذكراها.. ألم أجعلك فيهم معناي؟! ألم أجعلك لهم الحق مني؟! إليك لهم منتهاها إذا آمنوا بك فرأوك.. إذا وصلوك.. إذا قاربوك.. إذا على أنفسهم سودوك ما سادوك، ولا معناك في معانيهم منعوك، فصلوك، ففقدوك. إن قتلوك قتلوني، وإن فقدوك فقدوني. وإن وجدوك فما وجدوك في أنفسهم من دوني. وما ظلموني أو ظلموك ولكن ظلموا أنفسهم وفقدوا أنفسهم.

عبد هو ربه، ورب هو عبده.. إنسان عرف الحقيقة فكان الحقيقة، وعرف الخليقة فكان الخليقة.. أمته مذنبة وهو لها الرب الغفور. ما يئس.. وما قنط وما تخلف عن يائس أو قانط أو متخلف من عشيرته، عشيرته هي عشيرته وإن كفروه.. أمته هي أمته وإن نحروه.. وقومه هم قومه وإن تجاهلوه.. أرسل للناس كافة بالخلق العظيم، وللناس كافة اسم الله الرحمن الرحيم.. أنزل ما رفع، ووضع بيته للناس متكاثرا عليهم ما امتنع، وعنهم ما انقطع، وجديده فيهم مبعوث ما منع.

هذا هو الرسول الذي تنتسبون إليه. وهذا هو العبد الذي جعل الله لكم فيه أسوة ومثلا مضروبا، وكلمة مشهرة، ووجها مقاربا، وملكوتا بين الجوانح ينتشر، وفي القلوب سراجا يتواجد، ومن الرؤوس نورا يشرق، وبالعلم يتدفق، وبكلام الله عن الناس لا ينقطع، وبنور الله نورا للسموات والأرض لا يختفي. أمرتم بصلته وأبلغتم بوصل الله وملائكته له.. فما كانت صلاة الله وملائكته عليه كلاما يتحرك به اللسان، وما طلب إلى الناس أن يصلوا عليه كلاما تتشدق به الأفواه. إن صلاة الله عليه فعل، وإن صلاة الناس له وعليه استسلام.. صلوا عليه وسلموا تسليما بالإسلام له. فلا سلام عندكم عليه ولكن السلام عنده عليكم. إنه سلام الله عليكم وصلته بكم.. إنه إن صلى عليكم وسلمكم منكم لنفسه فقد صلى الله عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور.. إنه صلاة الله وملائكته عليكم. وإن فعلكم هو الإسلام لله وملائكته في الإسلام له {قل لا تمنوا على إسلامكم}[٢١].. فما كان الإسلام إلا لك وقل {بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان}[٢٢]. لقد كان إسلامكم لي من حظكم وسعادتكم، صادفتكم هذه السعادة وهذا الحظ في هذه الدورة من دورات الحياة فأسلمتم في إسلامكم لي لله فسلمتم.. وهكذا يكون الإسلام لله.

أما أنا فعَلَى ما تفعلون معي فعلتُ مع إنسان الربوبية عليّ.. أسلمت وجهي لله فكنت وجها له يشرق عليكم سراجا ترونه وتتجاهلونه فتعمهونه.. جعل سراج الطبيعة عليه دليلا. {جعلنا الشمس عليه دليلا}[٢٣]، {والنجم إذا هوى}[٢٤] فما كان إلا ما وراء هذا السراج يدل عليه، تواجد بينكم سراجا للقلوب، ونورا للظلام، وبعثا للموتى، وروحا لأواني الحياة. إنه أمر الله الذي تنفث الروح منه نورا على نور فيمن يشهد وجه الله فيه. {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون

وجهه}[٢٥].. واكشف الغطاء عن وجهك وجها لي.. {ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا}[٢٦] من الناس الذين ربينا الدنيا عليهم وجعلناهم عبادا لها حتى تتزين بهم ربا لهم وعبادا لها.

هذا هو عبد الله ورسوله أعطاه الكوثر متكاثرا، وجعل شانئه الأبتر فتناقص، فغلبت به رحمة الله عذابه وعدله يوم يجتث شانئه شجرة خبيثة، وينمو به فيه شجرة طيبة معاني التكاثر والكوثر. هذا ما عناه قوله تعالى وهو يقولها دواما {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[٢٧]، {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم}[٢٨]، وقام عليه السلام فيما أعطي، وعمل بما أمر فوعد بالمزيد حتى يرضى فقال (لا أرضى وأحد من أمتي في النار)[٢٩].. وهو الذي يعلم أنه أرسل كافة للناس، لا يرضى وأحد من الناس في النار.. إنه يبقى في النار مع أهلها مواسيا، هاديا ملطفا رحيما، ويبقى في الجنة مع أهلها، مذكرا منذرا منبها ملفتا، حتى يخرج الناس من الجنة يطلبون الله، وحتى يخرج الناس من النار يطلبون الله، فإذا خرجوا من الجنة وجدوه وجه الله، وإذا خرجوا من النار وجدوه رضوان الله.. (إن لله جنة ليس فيها غير وجه الله يضحك)[٣٠]، وما كان محمد إلا هذا الوجه لله.

فهلا طلبه الناس في قيامهم معتقدين، وبحثوا عنه جادين مجاهدين فكانوا حول بيته طائفين حاجين، واستقبلوه في صلاتهم مصلين؟ لا عن صلاتهم ساهون ولا عن المواعين مانعين، ولا هم بصلاتهم في البعد عن الله مزدارين؟ إن الصلاة صلة به، والصلة به صلة بربه، والصلة بربه صلة العبد بحقيقته من عقله ونفسه.. إنه دورة الحياة يوم تدور الحياة فيمن تدور في ذواتهم الحياة. إنه العقل في الناس ربا، وإنه النفس في الناس لله عبدا، وإنه الذات للناس عالما وكونا.. وإنه القلب للكون بيتا وقبلة.. وإنه الحق من الله.

هذه هي الحقيقة على ما عرّفها الإسلام للناس، نسأله تعالى أن يقوم علينا وعليكم بما يبصرنا به معنا. ولكن إذا كان الإنسان لا يفهم ويريد فرض غفلته على الناس فهو الأحمق، ولكن العاقل إذا رأى حكمة التقطها فإن أفلتت من نفسه بكاها وإن لم يعرف معناها. لم يكن محمد معروفا للناس حتى في عصره.. ألم يقل لهم ما عرفني غير ربي.. (لست على هيئتكم لست على صورتكم)[٣١].. لست على مثالكم فإني العبد الذي عرف بيته وربه، (أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني)[٣٢]، لا من طعامكم أيتها الدواب العمياء ولكن من موائد الإنسان.

إلى متى يبقى الناس في جهل برسول الله هذه القرون العديدة المتعاقبة التي تجاوزت الألف وبلغت منتصف الألف الثانية، لا يعرفون شيئا عن رسول الله إلا أنه ذات حيوانية على مثالهم من حيوانيتهم، ورجلا شهوانيا على جبلتهم من شهوانيتهم؟! يعتقدون أنهم كلما زادوا في حريمهم من النساء كانوا أقرب إلى سنته على مثال من بيوت تصوروها بالحور العين، وما أدركوه، وما أدركوها.

ما عُرف رسول الله لأمته وحتى اليوم إلا لبضع نفر عُرِفوا بالقوم قوما له. إن رسالة الروح اليوم وفي هذا العصر ورسالتنا جنودا لرسالة الروح لا تقوم إلا في التعريف عن الله في الإنسان، والإنسان في رسول الله وفي الناس، وإنها لا تقوم إلا للتعريف عن إنسان رسول الله غيبا مجهولا، وحقا مشهودا، وإنسان الناس حقا مفقودا، وعملا مقصودا، ورجاء موجودا، وأن لا معرفة للناس به إلا في المعرفة عنه، عرفانا عن الله، وعرفانا عن أنفسهم.

إن رسول الله هو لحمة كل دين وسداه. دينه جماع الأديان، وسنته جماع السنن، وأمته جماع الأنبياء، وجماع الأمم، ويوم تكون له في الناس أمة ظاهرة به هو ظاهر بها عرف وعرفت أمته. أما إذا لم تظهر للناس به أمة من المؤمنين به ظاهرة على أمته من الناس، فالأرض جميعا أمته، فالناس جميعا أمته، اهتدوا أو ضلوا، وهو معهم بالله صابر. والحق الذي يظهر من الناس ليس أهله إلا أمة له سواء ظهر في مشارق الأرض أو في مغاربها.

إن الدين اليوم يأتينا من أمريكا كما يأتينا من روسيا واليابان أو من أفريقيا. إن الدين ينبع من أمة محمد التي هي الناس جميعا. فإذا وجد في الناس من عرف ذلك في دين الله فعنون فطرة محمد فقام محمدا أو اجتمع محمدا والتأم أمة محمد، أظهرهم الله على الناس بوعيهم، وأكبرهم الله في عيون الناس بعطائهم في استقامتهم. وبذلك تجددت رسالة محمد في أمم الأرض أمما لمحمد.

إن رسالة محمد تجددت على رؤوس القرون في أمة العرب، وفي أمم الإسلام، وفي أمة الفطرة من أمم الأرض، ولكن تجددا ضعيفا ضئيلا لأن أمته من أمم التبليغ في الصدر الأول ما عرفوا من شمس ذاته مشرقة على الوجوه إلا شعاعا ضئيلا وصل إلى بعض القلوب غازيا. وما تقبل الناس في صدر الإسلام من هذا الشعاع ينعكس إليهم متأينا في القلوب التي استقبلته إلا من ندر. انظروا إلى الناس وهم يضيفون محمدا في آل بيته إلى سائر الناس ولا يرون فارقا بينه وبين الناس. نعم إنه لا فارق بين محمد وبين الناس، ولا فارق بين آل محمد وبين الناس، ولكن الفارق في أنهم قد تم لهم ما قد يتم للناس وهو ما يوعد به الناس. فالناس لم يتم لهم شيء مما تم لمحمد ولآل محمد. إن أسوة محمد للناس قامت به ودامت للناس بآله وعترته في بيته، مواصلة قيام له حتى يكون للناس أسوة باقية لا منقطعة ولا بتراء.

إن عليًّا قديم قدم محمد. إن عليًّا قام بمحمد وبكل ما قام به محمد من ربه. إن عليًّا لم يكن شيئا آخر غير محمد، فني في محمد وبقي بمحمد فناء محمد في ربه، وبقاء محمد بربه.

ولكن الناس في صدر الأمة ويوم البلاغ، وعلى عيونهم وقلوبهم غشاوة، رأوه فردا من حيوان عالمهم، ولم يروه عين السراج يبقى بينهم لأنهم ما عرفوا السراج. كذبوا رسول الله يوم قال لهم (أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها)[٣٣] وكذبوه يوم قال له على مسمع منهم (يا عليُّ أنت ذو قرنيها)[٣٤]، (وهذا خليفتي فيكم)[٣٥]. كذبوا رسول الله يوم قال لهم (من كنت مولاه فعَليٌّ مولاه)[٣٦] لأنهم لم يروا فيه مولى لهم.. كذبوا رسول الله يوم قال لعَليٍّ على مسمع منهم (أما يرضيك أن تكون أنت أخي. إنك مني بمنزلة هارون مِن موسى)[٣٧]، وإن انقطع لفظ النبوة وصفا للعارفين من بعدي إلى لفظ العبد، والعالم، والخبير الذي تسمو حقائقه ومغانيه عما في لفظ النبأ والنبيء، فيصعد الأئمة بأقوامهم إلى عوالم الحق فوق رؤوس الأنبياء أمرا للسموات، يخوض ومن معه بحار الحقيقة يقف الأنبياء على ساحلها، متابعين ربان الحقيقة وبحرها، عبد الله الأزلي، ورسول الله السرمدي، الذي عرف في ذات محمد، فعرف وجه الحق فيه.

أين هم الأنبياء من عليّ وهو عبد الله المتحرر من السموات والأرض؟ وأنتم وقد عبدتم أنفسكم لمعاني الأنبياء أوهاما في عقولكم فما عبدتم أنفسكم لوجوه الله فيهم تشرق، وقد أشرقت بينكم بتمامها في محمد وآله وجها جامعا لوجوه الله.. لا تتقربون إليهم زلفى حتى في أدب الصلاة والذكر.. والله يقول لكم وعلى لسان رحمته، لأنه لا يقول لكم مباشرة لعدم أهليتكم لخطابه، إذ يقول له تواضع لهم.. ارحمهم.. علمهم يسر لهم.. عرفهم.. حذرهم.. بشرهم {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى}[٣٨] وضع الأمور في نصابها حتى لا يظنوا أن مودتهم في القربى إنما هي فضل منهم بل هي فضل لهم، لا تحرمهم أن يكونوا ذوي فضل ولكن قل لهم إن تخلقوا بالحسن من الخلق فإنك ستزيد بي لهم في فعلهم الحسن حسنا.. {ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا}[٣٩].

هل وضع الناس من أمة محمد في فقههم نظاما أو عملا يتوسلون به إلى رسول الله إليهم، هم أو من سبقهم وقد أمروا أن يبتغوا إلى الله الوسيلة فهل ابتغوا إليه الوسيلة؟ وما الوسيلة إلا الصلاة الوسطى أمروا بالمحافظة عليها مع مفروض الصلوات، وما الصلاة الوسطى إلا الصلة برسوله وبآل رسوله وبعترة الكتاب من أمته. هل جعلوا هذا من فقههم ووضعوا له بابا في كتبهم كما وضعوا للوضوء والاستنجاء؟ أو كما وضعوا لباقي المناسك من حصوات الرجم من المزدلفة وأشواطه والسعي والطواف؟ ما عرفوا حجا، ولا ازدلافا، ولا صفاء، ولا ريا، ولا سعيا، ولا طوافا، وما عرفوا زاوية، ولا حجرا، ولا ركنا.. ولكن جسدوا المعاني، وقدسوا الشكل والفعل حيوانية أنفسهم ووثنية عقولهم في هذه الصور أوثانها وهم أوثان عبادتها. ما أشبههم بالقطيع يذهب إلى دار المبيت، أو إلى مسقاة

الماء! لا وعي لهم ولا إدراك عندهم، والرسول يقول لهم (العقل أصل ديني)[٤٠]، ما قبله العقل فاقبلوه، وما رفضه العقل فارفضوه، وما أمرتكم به فاتبعوه، وتذاكروه، وتواصوه، فتتعلموه.

أربعة عشر قرنا لا نقول إلا بمتابعته ولا نعقل ما قال في أمر متابعته، وهو الآمر بأن نعقل ما أمر وننفذ على ما أمر لنرى وندرك ونعقل ما به أمر.. لم ندخل بعد في معنى أمته. نتعصب له خيالا كلما نطق به لسان.. حمرا فرت من قسورة.. إن من يعرف الله لا يركن لغير الله ولا يتحدث عن غير الله ولا يقوم في غير الله، ولا يعمل بغير الله..... أفقهاء؟! من يحترفون فقه هذه الأمة منه يسترزقون، وبتحريف كلام الله عن مواضعه يأكلون.. ومن مقالة الحق ينفرون؟! أليسوا هم الحمر التي فرت من قسورة! وقد استنفروها لتستيقظ للحق فتطلب الحق..... هذا هو حال هذه الأمة في هذا العصر وما سبقه، فهلا وجد هذا الحال عاقلا يعيه، ومجاهدا يعتنقه ويؤمن به فيعمل له فيهديه؟

نسأل الله لنا وللناس الهداية، ولكل من في الأرض الرعاية.

نسأله لنا ولكل غافل العناية. نسأل الله أن يرزقنا جميعا الخير لنا ولأنفسنا ولآبائنا.. نسأل الله أن يولي أمورنا خيارنا برحمته، وأن لا يولي أمورنا شرارنا بما كسبت أيدينا، وأن يتولنا حكاما ومحكومين، رعاة ومرعيين، أئمة ومتابعين، مجاهدين وضالين، أن يتولانا بحكمته ورحمته، وأن يغير حالنا إلى أحسن حال.

لا إله غيره ولا معبود سواه.

أضواء على الطريق

- {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}[٤١] - {عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم}[٤٢].
- {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني}[٤٣] - (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها)[٤٤]
- {إنا أعطيناك الكوثر... فصل لربك وانحر... إن شانئك هو الأبتر}[٤٥].
- {ما جعلنا لبشر من قبلك الخلد}[٤٦] - {قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين}[٤٧].
- هو {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}[٤٨].
- {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث}[٤٩].
- {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا}[٥٠] - {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة واولو العلم}[٥١].

- {وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم}[٥٢] - {والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم}[٥٣].
- {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم}[٥٤]. {ملة أبيكم إبراهيم}[٥٥] - {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا}[٥٦].
- {ولن جعل للكافرين على المؤمنين سبيلا}[٥٧] - {ثم رددنا لكم الكرة عليهم}[٥٨].
- {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}[٥٩].
- {يوم ندعو كل أناس بإمامهم}[٦٠].

مصادر التوثيق والتحقيق

١ حديث شريف ذكره الشعراني في "لطائف المنن" مشيرًا إلى أن الحكيم الترمذي رواه في نوادر الأصول، ٥٦٦، وقد عرج عليه في الفتوحات في الباب الثالث في مضمار حديثه عن تنزيه الحق عن التشبيه والتجسيم، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرا، ونصه فيه: " إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم".

٢ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٣ حديث شريف: "كان اللهُ ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليهِ كانَ". المحدث: ابن تيمية، المصدر: مجموع الفتاوى. كما أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق بلفظ: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض."

٤ سورة يس - ٢٦:٢٧

٥ سورة الأنبياء - ٢٦

٦ بيت من نشيد صوفي يُرجعه البعض لشاعر من العصر العباسي معروف باسم "بكشاجم". كما يرجعه البعض إلى السيد ة زينب ابنة الإمام علي كرم الله وجهه:أيها المعرض عنا ... إن إعراضك منا لو أردناك جعلنا ... كلَّ ما فيك يردنا عباد أعرضوا عنا ... بلا جرم ولا معنى أساءوا ظنهم فينا ... فهلا أحسنوا الظن فإن خانوا فما خنا ... وإن عادوا فقد عدنا وإن كانوا قد استغنوا ... فإنا عنهم أغنى

٧ سورة الرعد - ٣١

٨ سورة طه - ٥٠

٩ سورة الزلزلة - ٧:٨

١٠ سورة الصافات - ٩٦

١١ سورة الشعراء - ٢١٨:٢١٩

١٢ الأنعام - ١٢٢

١٣ سورةسبأ - ٤٩

١٤ حديث شريف: "إن لله عبادا إذا رُؤوا ذُكر الله." الراوي: الحسن البصري. صحيح ابن ماجه.

١٥ سورة الأنبياء - ٣٠

١٦ سورة الأنبياء - ٣٠

١٧ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

١٨ حديث شريف: "تعرض عليّ أعمالكم، فما رأيت خيرا حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم." أخرجه النسائي والطبراني.

١٩ سورة التوبة - ١٠٥

٢٠ سورة الإسراء - ١٠٦

٢١ سورة الحجرات - ١٧

٢٢ سورة الحجرات - ١٧

٢٣ سورة الفرقان - ٤٥

٢٤ سورة النجم - ١

٢٥ سورة الكهف - ٢٨

٢٦ سورة الكهف - ٢٨

٢٧ سورة الأنبياء - ١٠٧

٢٨ سورة الأنفال - ٣٣

٢٩ من حديث شريف جاء في تفسير القرطبي أنه حين نزلت الآية {ولسوف يعطيك ربك فترضى} قال النبي صلى الله عليه وسلم "إذا والله لا أرضى وواحد من أمتي في النار." وجاء في صحيح مسلم في حديث طويل منه: "اللهم أمتي أمتي وبكى. فقال الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك فأتى جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأل فأخبره. فقال الله تعالى لجبريل: اذهب إلى محمد، فقل له: إن الله يقول لك: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك."

٣٠ إشارة إلى حديث شريف ذات صلة رواه مسلم في صحيحه، يصف حال عباد الله الصالحين يوم القيامة: "...فيكَشف الحجاب، فما أُعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ." كما في الآية الشريفة: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} سورة القيامة - ٢٢، ٢٣.

٣١ إشارة إلى الحديث الشريف: "إيَّاكم والوصالَ إيَّاكم والوصالَ قالوا: فإنَّكَ تواصِلُ يا رسولَ اللَّهِ قالَ: إنِّي لستُ كَهَيئَتِكُم إنِّي أبيتُ يُطعمُني ربِّي ويَسقيني". أخرجه مالك، والبخاري ومسلم باختلاف يسير.

٣٢ نفس الحديث أعلاه.

٣٣ حديث شريف: "أنا مدينةُ العلمِ، وعليٌّ بابُها، فمَنْ أرادَ العلمَ فليأتهِ منْ بابِهِ". المحدث: السيوطي. المصدر: الجامع الصغير، أخرجه الطبراني، وابن عدي، والحاكم..

٣٤ حديث شريف: " يا عليُّ، إنَّ لكَ كَنزًا مِنَ الجَنَّةِ، وإنَّكَ ذو قَرْنَيْها؛ فلا تُتبِعِ النَّظرةَ النَّظرةَ؛ فإنَّما لكَ الأُولى، وليست لكَ الآخِرةُ. جاء في حاشية مسند الإمام أحمد بن حنبل. كما جاء بصيغ مختلفة في المكتبة الشيعية.

٣٥ حديث شريف: "هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا" يعني علياً رضي الله عنه. أخرجه الطبري في تفسيره، وجاء في سيرة ابن هشام، كماأخرجه ابن جرير في "التفسير" وابن عساكر.

٣٦ حديث شريف، يوم غدير خم، بعد حجة الوداع، حيث أخذ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، بيدِ عليٍّ رضي الله عنه، فقال ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم قالوا بلى قال ألستُ أولى بكلِّ مؤمنٍ من نفسِه قالوا بلى قال فهذا وليُّ من أنا مولاه اللَّهمَّ والِ من والاهُ اللهمَّ عادِ من عاداهُ. صحيح ابن ماجه، أخرجه ابن ماجه وأحمد.

٣٧ إشارة لحديثين شريفين موجهين لسيدنا علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: ١- الحديث الشريف حين آخى رسول الله عليه الصلاة والسلام بين أصحابه بعد الهجرة، فقال لسيدنا عليّ: "أنت أخي في الدنيا والآخرة.". أخرجه الترمذي، وابن عدي، والحاكم. ٢- الحديث الشريف: "أنت مِنِّي بمَنزلَةِ هارونَ مِن موسى إلا أنَّه ليس بَعدي نَبيٌّ". صحيح مسلم وصحيح البخاري.

٣٨ سورة الشورى - ٢٣

٣٩ سورة الشورى - ٢٣

٤٠ عن علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن سنته فقال: المعرفة رأس مالي، والعقل أصل ديني، والحب أساسي، والشوق مركبي، وذكر الله أنيسي، والثقة كنزي، والحزن رفيقي، والعلم سلاحي، والصبر ردائي، والرضا غنيمتي، والعجز فخري، والزهد حرفتي، واليقين قوتي، والصدق شفيعي، والطاعة حبي، والجهاد خلقي، وقرة عيني في الصلاة. ذكره الغزالي في الإحياء، والقاضي عياض في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ومعظم المتصوفة.

٤١ سورة العنكبوت - ٦٩

٤٢ سورة المائدة - ١٠٥

٤٣ سورة يوسف - ١٠٨

٤٤ استلهاما من حديث شريف يخاطب فيه رسول الله صلى الله عليه وسلّم الإمام علي بن أبي طالب. " فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لكَ حُمْرُ النعم." أخرجه البخاري ومسلم.

٤٥ سورة الكوثر – ١-٣

٤٦ سورة الأنبياء - ٣٤

٤٧ سورة الزخرف - ٨١

٤٨ سورة الشعراء – ٢١٨، ٢١٩

٤٩ سورة الإسراء - ١٠٦

٥٠ سورة الإسراء - ١٥

٥١ سورة آل عمران - ١٨

٥٢ سورة الأنفال - ٣٣

٥٣ سورة محمد - ٢
٥٤ سورة الفتح - ٢٩
٥٥ سورة الحج - ٧٨
٥٦ سورة النحل - ١٢٠
٥٧ سورة النساء - ١٤
٥٨ سورة الإسراء - ٦
٥٩ سورة آل عمران - ١٠٤
٦٠ سورة الإسراء - ٧١